الفصل الخامس

الشعر

لم ينل الأدب من عناية الأمراء العلويين ما نال العلم. فظل الشعر – على ندرته – كما كان في العصر الماضي أسير التقليد والصنعة. ثم أدركته نفحة من الهبة العامة في عهد الخديوي إسماعيل، فترد ذكره على ألسنة شعرائه وندمائه، كالسيد علي أبي النصر [1] والشيخ علي الليثي [2]. أخذت هذه الحركة تطرد بالإقبال على أمهات كتب الأدب الباقية، والرجوع إلى منابع الشعر الصافية. وكان البارودي أول من أقام عمود الشعر وجدد دارس القريض، فترسم خطى الفحول من شعراء العباسيين، وحاكماه الناشئون من شعراء العصر، وابتغوا الوسيلة إلى ذلك بحفظ المختار من أشعار الجاهلين والإسلاميين، فأخصبت القرائح، وأدركت السلائق، وصحت الأذواق، وجرى الشعر جزل اللفظ، محكمة النسج، متين القافية، مشرق المعاني، متخففاً من أثقال البديع وأوزار الصنعة. ثم نزع الشعراء إلى الاستقلال والحرية والتجديد بتأثير الحضارة الأوربية، وتعلم اللغات الأجنبية، ونشاط الحركة العلمية. وقصدوا إلى اكتناه النفوس وتحليل الأشخاص، وتعليل الأشياء، ومناجاة الطبيعة وحاد أكثرهم عن الأساليب العتيقة كالاستهلال بمقدمة خارجة عن الموضوع في الغزل أو غيره تحتاج إلى تخلص؛ ونظروا إلى القصيدة كلها كأنها كائن حي تتساعد أجزاؤه على غرض معين؛ ونقروا من الأغراض القديمة كالمدح والفخر والهجاء والمجون، لتغير البيئة واختلاف التربية. وجرت ألسنتهم بالمعاني العامة، كرثاء مجد مفقود، وانتقاد عيب موجود، وطلب استقلال منشود. ولكن تقدم الشعر في الجملة كان أبطأ من تقدم النثر، لأن الثقافة العلمية في مصر

---

(1) ولد السيد علي أبو النصر في منفلوط، ونبغ في عهد إسماعيل ن ونال الحظوة لديه وعاش على جوائزه، ورافقه في أسفاره. ثم كانت وفاته سنة 1880م وله ديوان شعر مطبوع بمصر.

(2) كان الشيخ على الليثي لطيف المعاشرة فكه المحاضرة، خفيف الروح، فقربه الخديوي إسماعيل، وجعله شاعره ومسامره ومسايره. توفى سنة 1866م دون أن يدون شعره في كتاب.

أسبق من الثقافة الأدبية، ولأن الشعر لا يزال من ضروب الكمال التي لا تعد في وسائل الكسب ولا تدخل في صميم الحياة.

ومما يملأ النفس أسفاً ودهشة أن شعراء اليوم منوا بالجمود والأذهان ثائرة، وأصيبوا بالإصفاء وأسباب القول وافرة؛ فالشعب مضطرم الشعور ثائر الفكر يجاهد في سبيل وجوده وحريته بدمه وماله، وهم قاعدون تحت الجدر يتثاءبون ويتمطون على دفء الشمس تاركين الجيش من غير موسيقى! اللهم إلا صدحات من أمير الشعراء شوقي وشاعر النيل حافظ، يرسلانها الحين بعد الحين فتجلو صدأ الخواطر، وتحيى موات القلوب. فلما توفى الله في سنة 1922 حافظاً وشوقي، وكان أسماها علمين على الشعر في العهد الأخير، تسابقت القرائح الشابة إلى ملء مكانيهما، فنشط في مصر القريض. وتجاوبت الأفراخ النواهض بالأغاريد، وشرقت الصحف والمجلات بفيض هذه القرائح، ولكن أصواتها الناعمة الرخوة لم تملأ الأسماع ولم تطرد الوحشة. ولاحت في لبنان المهاجرة مواهب النبوغ ودلائل القيادة؛ ولكن البعد يبدد الصوت القوي، والاغتراب يوهن الجهد الجهيد. والزمن الذي يمحص الأشياء فينفى البهرج الزائف، ويثبت الحق الصريح، هو الذي يعرف مكان هذه الجهود، من عالم الفناء أو من عالم الخلود.

الشعراء

محمود سامي البارودي

(المتوفى – 1904م)

نشأته وحياته

هو ابن حسن بك حسني مدير دنقلة وبربر على عهد محمد علي باشا. ولد بالقاهرة وشبل في نعمة أبيه. ولم يكد يحبو للسابعة حتى فجعه الموت فيه بدنقلة فعنى بتأديبه بعض أهله: وأدخلوه المدرسة الحربية فتعلم الفنون العسكرية وخرج منها ضابطاً. وكان وهو غض الحداثة مولعاً بحفظ الشعر وإنشاده، ولا نعلم مصدر هذا الميل فيه. فأخذ نفسه بدرس دواوين الفحول من شعراء العرب حتى شب فصيح اللسان، مطبوعاً على الإعراب دون علم بالنحو. ثم فاض ما حفظ على لسانه فانطلق برائق الشعر في الأغراض المختلفة. وسافر إلى الآستانة فدرس اللغتين التركية والفارسية، وتضلع من آدابها حتى عد من شعرائها. واتصل هناك بالخديوي إسماعيل عام 1279هـ، فألحقه بحاشيته وعاد به إلى مصر، فتدرج في الرتب الحربية حتى سما سنة 1294 هـ إلى (لواء). ورحل في أثناء ذلك إلى فرنسا وانجلترا، فازداد قوة في أدبه، وخبرة في فنه. وكان أحد ضباط الحملة المصرية التي ساعدت الدولة

العلية أثناء ثورة البلقان وإقريطش، فأملى فيها بلاء حسناً. فلما عاد إلى مصر نقل إلى المناصب الإدارية فولى مديراً للشرقية ثم رئيساً للضبطية. وفي عهد توفيق تقلد نظارة الأوقاف ووصل إلى رتبة (فريق) وتولى نظارة الجهادية قبيل الثورة العرابية. ورأس النظارة بعد شريف باشا، فما لبث غير قليل حتى ثار نقع الثورة واستطار شرر الفتنة. وأكثر الناس على أن البارودي أول من فتح بابها وتدرع جلبابها، ولكن شعره يبرئه من ذلك كما سيجيء.

وسكتت الثورة باحتلال الإنجليز وادي النيل وقبض على مثيري الفتنة وحكم عليهم بالنفي إلى جزيرة سرنديب (سيلان) وفيهم الشاعر. فلبث في منفاه سبعة عشر عاماً وبعض عام تعلم في اثنائها اللغة الإنجليزية، ونظم بدائع شعره في العربية. ثم وسعته رحمة الخديوي عباس الثاني فعفا عنه سنة 1327 هـ ومنحه التمتع بالحقوق فلم يعش بعدها إلا خمس سنين قضاها في سكون الشيخوخة وادعاً بين مطالعة الكتب، ومحادثة الصحب، ومعالجة القريض. وقد كف بصره قبيل موته.

شعره

إن كان لامرئ القيس فضل في تمهيد الشعر وتقصيده، وليشار في ترقيته وتجويده، فللبارودي كل الفضل في إحيائه وتجديده. كان الشعر في عهده صورة مشوهة من آثار القرون الأخيرة المظلمة؛ نظم مرتبك، ونكلف باد، وصناعة فاشية، ومعنى سقيم. فجلاه في خاطره وصقله على لسانه، فجاء منضد اللفظ نقيَّ المستَشف. تقصص البارودي شعر ابن المعتز وأبي فراس والرضى والطغرائي وأمثالهم من الفحول، فارتسم شعرهم على لوح قلبه، وانتقش في صفحة ذهنه؛ وصادف ذلك منه شعوراً فياضاً وذوقاً سليماً، فاستخرج من مجموع تلك الأساليب أسلوبه الرائق الفخم. لذلك تحس وأنت تقرأ قصيدة من نظمه أ أرواح أولئك الفحول تحوم حول روحه، وتحلق فوق أبياته [1].

(1) إشارة إلى أن البارودي كثيراً ما يقع على معاني هؤلاء الشعراء وألفاظهم دون أن يشعر لكثرة محفوظه.

ما كان البارودي مبتكر معان ولا مبتدع أساليب، ولكنه كان رائد فواف وصائغ قريض. قد كلف بالنغمة؛ وانصرف إلى الصنعة، فآثر المعنى الضئيل في اللفظ الجزل، على المعنى البليغ في اللفظ الغث، وقد أجاد وأبدع في الفخر والحماسة والوصف.

مؤلفاته

له كتاب (مختارات البارودي) في أربعة أجزاء وهو مجموع ما اختاره لثلاثين شاعراً من شعراء العصر العباسي في أغراض مختلفة. وقد نهج في اختياره طريقته في نظمه، فآثر حسن اللفظ والمعنى، وحسن اللفظ، على حسن المعنى وقح المبنى. وله (ديوان شعر) في جزأين قد طبع في مصر.

نموذج من شعره

قال في الحماسة والفخر:

ونقع كلج البحر خضت غماره ... ولا معقل إلا المناصل والجرد
صبرت له والموت يحمر تارة ... ويغفل طوراً في العجاج فيسود
فما كنت إلا الليث أنهضه الطوى ... وما كنت إلا السيف فارقه الغمد
صؤول وللبطال همس من الونى ... ضروب وقلب القرن في صدره يعدو
فما مهجة إلا ورمحي ضميرها ... ولا لبة إلا وسيفي لها عقد

وقال يرثي زوجته:

لا لوعتي تدع الفؤاد ولا يدي ... تقوى على رد الحبيب الغادي
يا دهر فيم فجعتني بحليلة ... كانت خلاصة عدتي وعتادي؟
إن كنت لم ترحم ضناي لبعدها ... أفلا رحمت من الأسى أولادي؟
ومن البلية أن يسم أخو الأسى ... رعى التجلد وهو غير جماد
هيهات بعدك أن تقر جوانحي ... أسفا لبعدك أو يلين مهادي
ولهي عليك مصاحب لمسيرتي ... والدمع فيك ملازم لوسادي

فـإذا انتهيـت فانـت أول ذكرتـي وإذا أويـت فأنـت آخـر زادي

وقال من قصيدة أخرى يتشوق:

ردوا على الصبي من عصري الخالي هـل يعـود سـواد اللمـة البـالي!

مـن يـدر مـن بـات مسـروراً بلذتـه أني بنار الأسى من هجره صالي

يـا غاضـبين علينـا هـل إلـى عـدة بالوصـل يـوم أنـاغي فيـه أقبـالي؟

غبـتم فـأظلم يـومي بعـد فـرقتكم وساء صنع الليالي بعد إجمالي

فـاليوم لارَسـنى طـوع القيـاد ولا قلبـي إلـى زهـرة الـدنيا بميـال

أبيـت منفـرداً فـي رأس شـاهقة مثل القطامي فوق المربأ العالي

وقال يخاطب مؤججي الثورة العرابية:

نصحت قومي: قبت الحرب مفجعة وربمـا تـاج أمـر غيـر مظنـون

فخـالفوني وشـيوها مكـابرة وكـان أولـى بقـومي لـو أطـاعوني

تـأتي الأمـور على مـا ليس في خلد ويخطئ الظن في بعض الأحايين

حتـى إذا لـم يعـد فـي الأمـر منزعـة وأصـبح الشـر أمـراً غيـر مكنـون

أجبت إذ هتفوا باسمي ومن شيمي صـدق الـولاء وتحقيـق الأظـانين

وقـال مـن قصـيدة بعـد عودتـه مـن المنفـي، ومـروره بقصـر الجزيـرة فتـذكر عهـد إسماعيل:

هل بالحمى عن سرير الملك من يزع هيهـات قـد ذهـب المتبـوع والتبـع

هـذى الجزيـرة فـانظر هـل تـرى أحـداً ينـأى بـه الخـوف أو يـدنو بـه الطمـع

أضـحت خـلاء وكانـت قبـل منزلـة للملـك منهـا لـو فـد العـز مرتبـع

فـلا مجيـب يـرد القـول عـن نبـأ ولا سـميع إذا ناديـت يسـتمع

ومنها:

زالـوا فمـا بكـت الـدنيا لفـرقتهم ولا تعطلـــت الأعيـــاد والجمـــع
والـدهر كـالبحر لا ينفـك ذا كـدر وإنمـا صـفوه بـين الـورى لمـع
لـو كـان للمـرء فكـر فـي عواقبـه مـا شـاب أخلاقـه حـرص ولا طمـع

إسماعيل صبري

(1854 – 1923 هـ)

نشأته وحياته

ولد هذا الشاعر الفنان ودرج على ضفاف النيل، وشب في عهد إسماعيل عهد الحضارة والعمارة والأدب، فأدخل المدارس النظامية الحديثة، وتنقل في مدارجها من (المبتديان) إلى (التجهيزية) إلى (مدرسة الإدارة) حتى شارف الثامنة عشرة من عمره. وكانت بواكير النهضة الأدبية قد بدت في (روضة المدارس) وهي مجلة للطلاب ينشئها صفوة الكتاب في ذلك العهد كرفاعة بك، والشيخ حسين المرصفي أستاذ البارودي، وعبد الله فكري، وصالح مجدي؛ وكانت تصدر مرتين في الشهر حافلة بمختلف الموضوعات والمنتخبات من نثر ونظم، فكان صبري يديم النظر فيها، ويحاول الاقتباس منها والاقتداء بها، وله من ذات نفسه ملكة قوية تدفعه، وقريحة سخية ترفده، وذوق سليم يرشده، فنظم بعض القصائد تهنئة للخديوي نشرها في هذه المجلة وعمره إذ ذاك ستة عشر عاماً. ثم رحل إلى فرنسا مع البعثة المصرية يستكمل حظه من العلوم في جامعة " إكس " فنال منها إجازة الحقوق سنة 1878م، لابس أثناء ذلك الحضارة الأوربية، وتذوق الآداب الفرنسية، وصادفت مواهبه الغريزية هناك ريا من الجمال والعلم والفن فازدادت نمواً وخصباً. فلما رجع إلى مصر أنسلك في طريق القضاء فقطع مراحله واحدة فواحدة حتى أشرف

منه على الغاية. فخرج إلى الإدارة فتولى محافظة الإسكندرية ثم نقل منها إلى وكالة الحقانية فشغلها حيناً من الدهر، ثم نفض يده جملة من خدمة الحكومة سنة 1907م لبلوغه سن التقاعد. ولزم داره يدارس أصحابه الأدب ويساجلهم القريض، ويرسل عواطف قلبه وخواطر فكره أنغاما موقعة على قيثارة شعره. وكانت داره منتدى للشعراء ومثابة للأدباء يفدون إليها للسمر فينشدونه أشعارهم فينقدها نقد الصيرف ويهذبها تهذيب المعلم، حتى نعتوه بالأستاذية، وأقروا له بالأولية. وظل علة هذه الحال إلى أن منى بداء القلب، فغالبه بضع سنين ثم صرعه سنة 1923 وهو في التاسعة والستين من عمره.

شعره

عَهدُنا بالشعراء الوجدانيين ينبغون في زهرة الشباب وربيع العمر حين تكون العواطف مشبوبة، والمشاعر مضطرمة، والآمال موفورة، والحياة منضورة؛ ولكن صبري وهو شاعر وجداني محض لم ينبغ إلا وهو آخذ بمخنق الأربعين. فلم تتدفق قريحته في صباه كالبارودي، وإنما حفلت على مرور الزمان وطول المرانة وإدمان النظر. لم يكن شعره في الشباب إلا تقليداً لم يحكم، وتفكيراً لم ينضج، ومحاولة لم تتم. ولكن الله قدر رزقه أذناً موسيقية وذوقا سليماً [1] وطبيعة ناقدة، فصاغه من الألفاظ المتخيرة. والمعاني المبتكرة، وسار وراء البحتري ينشد الحب والموت والجمال والصداقة، ويهزج بتلك المقطوعات الغنائية التي شفت عن روحه، وكشفت عن طبعه، وأحلته من أنداده محل الزعيم. كان صبري كما قال مطران أكثر ما ينظم لخطرة تخطر على باله من مثل حادثة يشهدها، أو خبر ذي بال يسمعه، أو كتاب يطالعه. وكان شديد النقد لشعره، كثي التبديل والتحويل فيه، حتى إذا استقام على ما

---

(1) قال الأستاذ الرافعي في مجلة المقتطف: لم يكن في مصر ممن يحسن ذوق البيان ويميز أقدار الألفاظ بعضها من بعض وألوان دلالتها كالبارودي وصبري وإبراهيم المويلحي والشيخ محمد عبده رحمهم الله جميعاً، فالبارودي يذوق بالسليقة، وصبري بالعاطفة والمويلحي بالظرف والشيخ بالبصيرة النفاذة. وذلك شيء ركبه الله في طبيعة صبري ولم يحصله بالدرس أكثر مما حصله بالحس، ومن أجله كان يفضل البحتري على غيره ".

يريده ذوقه السليم من رقة اللفظ وفصاحة الأسلوب أهمله ثم نسيه. وكان ينظم المعنى الذي يعرض له في بيتين عادة إلى أربعة إلى ستة. وقلما يزيد على هذا القدر إلا حيث يقصد قصيدته وهو نادر.

نموذج من شعره

قال في الغزل ويقال إنه في الآنسة (مي):

يا لواء الحسن، أحزاب الهوى ... أيقظوا الفتنة في ظل اللواء
فرقتهم في الهوى ثاراتهم ... فاجمعي الأمر وصوني الأبرياء
إن هذا الحسن كالماء الذي ... فيه للأنفس ري وشفاء
لا تذودي بعضنا عن ورده ... دون بعض، واعدلي بين الظماء
أنت يم الحسن فيه ازدحمت ... سفن الآمال يزجيها الرجاء
يقذف الشوق بها في مائج ... بين لجين: عناء وشقاء
شدة تمضي وتأتي شدة ... تقتفيها شدة، هل من رجاء
ساعفي آمال أنضاء الهوى ... بقبول من سجاياك رخاء
وتجلى واجعلي قوم الهوى ... تحت عرض الشمس بالحكم سواء
أقبلي نستقبل الدنيا وما ... ضمنته من معدات الهناء
واسفرى، تلك حلى ما خلقت ... لتواري بلثام أو خباء
واخطري بين الندامى يحلقوا ... أن روضاُ راح في النادي وجاء
وانطقى، ينثر إذا حدثتنا ... ناثر الدر علينا ما نشاء
وابسمي، من كان هذا ثغره ... يملأ الدنيا ابتساماً وازدهاء
لا تخافي شططا من أنفس ... تعثر الصبوة فيها بالحياء
راضت النخوة من أخلاقنا ... وارتضى آدابنا صدق الولاء
فلو امتدت أمانينا إلى ... ملك ما كدرت ذاك الصفاء

أنـــت روحانيـــة، لا تـــدعى أن هـذا الشـكل مـن طـين وماء
وانزعـي عـن جسـمك الثـوب بـين للمـلا تكـوين سـكان السـماء
وأرى الـــدنيا جنـــاحي ملـــك خلـف تمثـال مصـوغ مـن ضـياء

وقال في ساعة الوداع:

أتـرى أنـت خـاذلي سـاعة التوديـع يـا قلـب فـي غـد م نصـيري
ويـك! قـل لـي متـى أراك بجنبـي راضـياً عـن مكانـك المهجـور
سـاعة البـين قطعـة أنـت قـدت للمحبـين مـن عـذاب السـعير
لا تحينـي، روحـي الفـداء لمـا حيـك غـداً مـن صـحيفة المقـدور

وقال:

أقصـر فـؤادي فمـا الـذكرى بنافعـة ولا بشـافعة فـي رد مـا كانـا
سـلا الفـؤاد الـذي شـاطرته زمنـاً حمـل الصبابة فاخفق وحدك الانا

وقال:

تمسـي تـذكرنا الشـباب وعهـده هيفـاء مرهفـة القـوام فتـذكر
تثب القلوب إلى الرءوس إذا بدت وتطـل مـن حـدق العيـون وتنظـر

وقال في الصداقة:

إذا خـاننني خـل قـديم وعقنـي وفوقـت يومـاً فـي مقاتلـه سـهمي
تعـرض طيـف الـود بينـي وبينـه فكسـر سـهمي فانثنيـت ولـم أرم

وقال:

يـا مـوت خـذ مـا أبقـت ال أيـام والسـاعات منـي
بينـي وبينـك خطـوة إن تخطهـا فرجـت عنـي

وقال يناجي الله:

يـا رب أيـن تـرى تقـام جهـنم للظـالمين غـداً وللأشـرار
لم يبق عفوك في السموات العلى والأرض شـبراً خاليـاً للنـار
يـا ري أهلنـي لفضـلك واكفنـي شـطط العقـول وفتنـة الأفكـار
ومر الوجود يشف عنك لكي أرى غضـب اللطيـف ورحمـة الجبـار
يـا عـالم الأسـرار حسـبي محنـة علمـي بأنـك عـالم الأسـرار
أخلـق برحمتك التي تسع الورى ألا تضـيق بـأعظم الأوزار

أحمد شوقي

(المتوفى سنة 1923م)

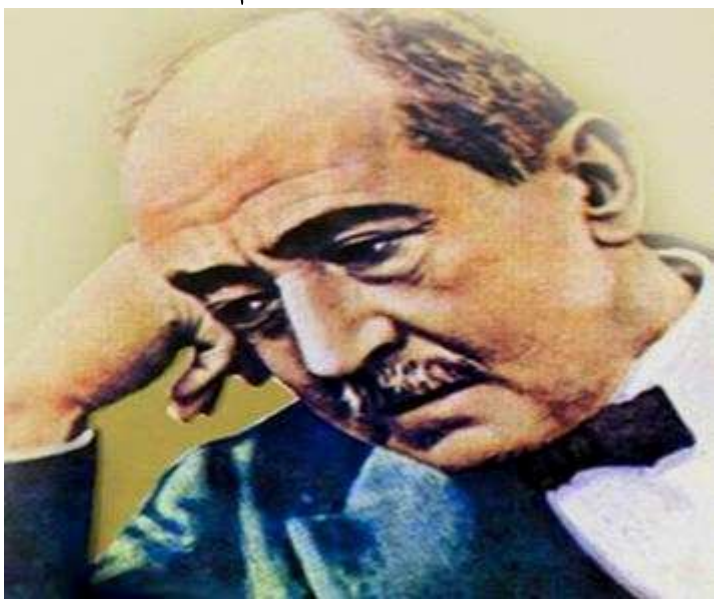

نشأته وحياته

ولد أحمد شوقي بن أحمد شوقي بالقاهرة ونشأ بها. أما أصله فقد سمع أباه " يرده على الأكراد فالعرب ويقول إن والده قدم هذه الديار يافعاً يحمل وصاة من أحمد باشا الجزار إلى والي مصر محمد علي باشا فأدخله في معيته، وظل يتقلب في المناصب السامية حتى أقامه سعيد باشا أميناً للجمارك المصرية [1].

ولقد كان أبوه متلافاً فأهلك ما ورث عن أبيه فكفلته في المهد جدته لأمه وكانت إحدى وصائف القصر في عهد إسماعيل. ولما بلغ الرابعة من عمره، أدخل في مكتب الشيخ صالح في حي الحنفي. ثم تلقى بعد ذلك دروسه الابتدائية والثانوية وتقدم إلى مدرسة الحقوق في سن باكرة فقضى بها عامين. ثم عدل إلى قسم الترجمة الذي أنشئ فيها فقضى به عامين آخرين نال بعدهما شهادتها النهائية. ثم ضمه الخديوي توفيق إلى معيته وأشخصه إلى فرنسا على

---

(1) مقدمة الطبعة الأولى لديوان (الشوقيات)

نفقته ليدرس الحقوق والآداب فدرس عامين في (منبلييه) وعامين في باريس. ثم عاد إلى منصبه في المعية الخديوية. وظل يتدرج في المناصب حتى تولى رياسة القلم الأفرنجي في عهد الخديوي عباس الثاني. ونفق لدى هذا الأمير حتى كانت شفاعته عند ذوي الحكم لا ترد وإشارته لا تخالف. ولما شبت الحرب العالمية الأولى خلعت انجلترا بقوة الاحتلال الخديوي عن عرش مصر. ورأى أولو الأمر يومئذ أن يغادر شوقي البلاد، فاختار برشلونة من أعمال أسبانيا مقراً له ولأسرته ولم يعد إلى مصر إلا بعد أن عاد السلام إلى العالم. ولكن صلته الوثيقة بالنظام القديم، ومدائحه المروية في الخديوي المنفي، مازالت توهي بينه وبين القصر أسباب الثقة والتقريب. فانصرف الشاعر بإلهامه وأنغامه إلى الشعب، يذود عن حوضه، ويهتف بمجده، ويعرب عن شعوره، وينقل عن طبعه، ويتغنى بجهاده، حتى حمدت له مصر والعرب هذه اليد، فأقاموا له في دار الأوبرا الملكية مهرجاناً عاماً لتكريمه اشترك فيه رجالات مصر وأقطاب الدول العربية برعاية صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول. ولم يزل شوقي مبهط الوحي والإلهام. وموضع الإكبار والإكرام، حتى انتقل إلى جوار الله في سنة 1932، فأقامت له وزارة المعارف وطائفة من أعيان الفضل والأدب، حفلة تأبين بدار الأوبرا الملكية دعت إليها أقطاب العلم والأدب في الأقطار العربية ورعاها الملك بنائب عنه.

شوقي الشاعر

يكاد النقاد يجمعون على أن شوقي كان تعويضاً عادلاً عن عشرة قرون خلت من تاريخ العرب بعد المتنبي لم يظهر فيها شاعر موهوب يصل ما انقطع من وحي الشعر، ويجدد ما أندرس من نهج الأدب.

كان شوقي ينقل شعره عن طبع دقيق، وحس صادق، وذوق سليم، وروح قوي، فيأتي به مطرد السلك محكم السبك لا يشوبه ضعف ولا لغو ولا تجوز ولا قلق. وهو كالمتنبي في أنه تصرف بين الناس فلابس أولياءهم، وخالط دهماءهم، حتى عرف كيف يصف طبائعهم، ويصور منازعهم. وهو مثله في إرسال البيت النادر، والمثل السائر، والحكمة العالية، مستخلصا ذلك مما

يسوق من معاني المدح أو الوصف أو الرثاء، دون أن يتوخاه أو يقصد إليه – وهو كذلك مثله في أن بيته يفيض بالمعنى البعيد المبتكر فيضاناً يغرق فيه الذهن أحياناً، فلا يصل إلى قاع، ولا يرسي إلى ساحل. أما معانيه فكثيرها مخلوق وقليلها مطروق. وأما ألفاظه فأنماط من القول تختلف مادة وصنعاً باختلاف المواقف، وأكثرها عليه رونق طبعه، وسمة ظرفه، وعذوبة روحه. وقد يعفى طبعه أحياناً فيرسل شعره كما يجيء فيأتي بما لا يتفق مع فضله.

وشوقي محافظ في دينه ولغته وفنه، يكثر الترديد لأسماء الأنبياء والخلفاء والكتب المنزلة، والأماكن المقدسة، ويؤثر النسج على منوال الفحول من شعراء بني العباس، والنظم في البحور الطويلة. وقلما ينظم في الأوزان المستحدثة أو ينوع القافية في القصيدة. على أن هذه المحافظة لم تمنعه من تكميل نقص الشعر العربي، فقد ظل شعرنا إلى عهده غنائياً (Jyrique) يستمده الشاعر من طبعه، وينقله عن قلبه، حتى جاء هو فنظم ما يشبه الشعر القصصي (Epique) في طول النفس ووطنية الموضوع وعمومية الحادث، كأرجوزته (دول العرب) وقصيدته في (وادي النيل).

ثم عالج الشعر التمثيلي، فنظم رواياته المعروفة: مصرع كليوباترة، ومجنون ليلى، وقمبيز، وعلي الكبير، وعنترة، والست هدى، فكان بهذا التجديد الشاعر العربي الكامل. وقد جمع شعره في ديوان يقع في أربعة أجزاء. له غيره في الشعر كتاب (عظماء الإسلام) وجملة من القصائد للأطفال والأغاني.

ولشوقي نثر مسجوع لا يختلف عن الشعر إلا في الوزن، جمع طائفة كبيرة منه في كتاب سماه (أسواق الذهب). وله من النثر المرسل قصص منها. لاياس، وورقة الآس، ومذكرات بتثاءور، وأميرة الأندلس:

نموذج من شعره

قال من قصيدة يصف فيها دمشق:

آمنت بالله واستثنيت جنته ... دمشق روح وجنات وريحان

قال الرفاق وقد هبت خمائلها ... الأرض دار، لها (الفيحاء) بستان

جـرى وصـفق يلقانـا بهـا (بـردى) كمـا تلقـاك دون الخلـد رضـوان
دخلتهـــا وحواشـــيها زمـــردة والشمس فوق لجين الماء عقبان
والحور في (دمر) أو حول (هامتها) حـور كواشـف عـن سـاق وولـدان
و (ربـوة) الـواد فـي جلبـاب راقصـة الســاق كاســية والنحــر عريــان
والطير تصدح من خلف العيون بها وللعيــون كمــا للطيــر ألحــان
وأقبلـت بالنبـات الـرض مختلفـاً أفوافـه فهـو أصـباغ وألـوان
وقـد صـغى (بـردى) للـريح فـابتردت لـدى سـتور حواشـيهن أفنـان
ثـم انثنـت لـم يـزل عنهـا الـبلال ولا جفـت مـن المـاء أذيـال وأردان

وقال يصف رحلته إلى الأندلس من قصيدة طويلة:

اخـتلاف النهـار والليـل ينسـى إذ كـرا لـي الصـبا وأيـام أنسـي
وصـفا لـي مـلاوة مـن شـباب صـورت مـن تصـورات ومـس
عصـفت كالصـبا اللعـوب ومـرت سـنة حلـوة ولـذة خـاس
وسلا مصر: هل سلا القلب عنها أو أسـا جرحـه الزمـان المؤسـي
كلمـا مـرت الليـالي عليـه رق والعهـد فـي الليـالي تقسـي
مسـتطار إذا البـواخر رنـت أول الليـل أو عـوت بعـد جـرس
أحـرام علـى بلابلـه الـدوح حـلال للطيـر مـن كـل جـنس

ومنها:

كـل دار أحـق بالأهـل إلا فـي خبيـث مـن المـذاهب رجـس

ومنها:

وطنـي لـو شـغلت بالخلـد عنـه نـازعتني إليـه فـي الخلـد نفسـي
شـهد الله لـم يغـب عـن جفـوني شخصـه سـاعة ولـم يخـل حسـي

محمد حافظ إبراهيم

(1870 – 1932م)

نشأته وحياته

ولد محمد حافظ إبراهيم في ديروط من أعمال مديرية أسيوط حوالي سنة 1870 إذ كان أبوه إبراهيم فهمي من المهندسين المشرفين على بناء قناطرها. ولما كان عمره سنتين توفى أبوه فقيراً في ديروط فانتقلت به أمه إلى القاهرة فكفله خاله وأدخله (المدرسة الخيرية) فمدرسة المبتديان فالمدرسة الخديوية. ثم انتقل خاله إلى طنطا فنقله معه؛ فقضى فيها بضع سنين متبطلا يزجى فراغه بالقراءة، ويدفع ملاله بالقريض.

ولم يستطع خاله لسبب ما أن يجلو عنه غمة اليأس وذلة اليتم، فكان لا يفتأ متبرماً بالعيش، متأففاً بالناس، متجنياً على القدر، لا ينشئ الشعر إلا في ذاك. ثم دفعته الحاجة إلى مكاتب المحامين فتبلغ بالعمل فيها حيناً، حتى أسعفته الفرص فدخل المدرسة الحربية، وخرج منها ضابطاً بالجيش. ثم نقل إلى الشرطة، ثم أعيد إلى الجيش، وأشخص إلى السودان في الحملة المصرية

بقيادة كتشنر فبقى هناك زمنا كان لا ينفك فيه متبرما متمرداً، يلح في العودة إلى مصر. فلما أخفق مسعاه ثار مع فئة من الضباط سنة 1899، فحوكم وأحيل إلى الاستيداع، ومنه إلى المعاش.

عاد حافظ كما كان يضطرب في الحياة المبهمة، لا يستريض لعمل، ولا يستقر على أمر، ولا يتشوف إلى غاية، وإنما يضطرب نهاره من قهوة إلى قهوة، ويتقلب ليله من مجلس إلى مجلس، ويفيء إلى ظل الإمام محمد عبده فينتفع بجاهه ويعيش على رفده، ويغشى مع ذلك أبهاء النعمة، يسامر أهلها بعذب حديثه، وينادمهم برقيق شعره. وفي سنة 1911 عينه أحمد حشمت باشا وزير المعارف يومئذ رئيساً للقسم الأدبي بدار الكتب المصرية، ثم وكيلا للدار، وظل في هذا المنصب حتى خرج إلى التقاعد في صدر سنة 1932 وتوفي صيف السنة نفسها.

حافظ الأديب

عاش حافظ بحكم طفولته الشاردة المهملة عيش الكسل والتبطل، لا يمثل إلى عمل، ولا ينشط إلى عمل، كدأب الناس قديماً من أضراب مسلم ابن الوليد، وأبي نواس، ممن عاشوا صنائع للملوك، وحمائل على الجوائز، ووسائل للهو.

كان مبدأه الأدبي مبدأ اليوم، كما كانت حياته المادية حياة الساعة. رأى الآمال تتهافت حيناً من الدهر على أريكة الخديوية في مصر وعرش الخلافة في الآستانة، فجرى لسانه بالشعر المطبوع، في مدح عباس، وتمجيد عبد الحميد. ثم اتصل بالإمام محمد عبده وشيعته من سراة البلاد، وشيوخ الأمة، ولهم يومئذ في الإنجليز رجاء موصول وظن حسن، فصدرت عنه هذه الفترة قصائد في رثاء الملكة فيكتوريا، وتتويج الملك إدوارد السابع، ووداع اللورد كرومر، عبر بها عن الرأي الارستقراطي في ذلك الحين. ثم خلص للشعب. فلابس دهماءه، وخالط زعماءه، واندفع بقوة الوطنية الدافقة الشابة إلى لواء مصطفى كامل فمزح شكواه بشكوى البلاد، وضرب على أوتار القلوب أناشيد

الجهاد، ونظم أماني الشباب من حبات قلبه، وترجم أحاديث النفوس ببيان شعره.

عكف منذ شب على دواوين الشعر، وأجزاء (الأغاني) ينتحلها ويتمثلها ويعاود النظر فيها، حتى بلغ من مختار الرواية ومصطفى الكلام ما لا غاية بعده. ثم قنع من فروع الثقافة الأخرى بنتف من المسائل الأولية ينقلها عن السماع ويأخذها من الصحف إذا ظن أنها تدخل بوجه من الوجوه فيما يعينه من ابتكار الأسماء وصوغ القريض.

حافظ الشاعر

صياغة حافظ هي موهبته الأولى ومزيته الظاهرة. وهو في ذلك ثاني الخمسة [1] الذين تيقظت على دعوتهم نهضة الشعر، وتجددت على صنعتهم بلاغة القصيد. ولعله انفرد عن هؤلاء جميعا بالصدق في تعبيره عن هموم قلبه، وتفسيره لأماني شعبه، وتصويره لمساوئ عصره. أما الروح والموضوع فأصداء منبعثة من الماضي في فريادته، وآراء مقتبسة من الحاضر في اجتماعياته، كان إذا تهيأ للشعر عمد إلى الآراء التي تحتاج حينئذ في النفوس، وتستفيض مع المجامع، وتتردد في الصحف، فيجمعها في بالع، ويديرها في خاطره، ثم يكون همه بعد ذلك أن يصوغها فيحسن الصوغ، ويسبكها فيجيد السبك، وتقرأ بعد ذلك أو تسمع فإذا نسق مطرد وأسلوب سائغ، وشيء كأنك سمعته من قبل ولكن عليه طابع حافظ ووسمه [2].

نموذج من شعره

قال على لسان اللغة العربية تنعي حظها بين أهلها:

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي ... ونواديت قومي فاحتسبت حياتي

رموني بعقم في الشباب وليتني ... عقمت فلم أجزع لقول عداتي

---

(1) البارودي وصبري وشوقي وحافظ ومطران.

(2) راجع ما كتبناه عنه في وحي الرسالة الجزء الأول وفي أصول الأدب (شوقي وحافظ).

ولـدت ولمـا لـم أجـد لعرائسـي رجـــالا وأكفـــاء وأدت بنـــاتي
وسـعت كتـاب الله لفظـاً وغايـة ومـا ضـقت عـن آي بـه وعظـات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة وتنســـيق أســـماء لمخترعـــات
أنـا البحـر فـي أحشـائه الـدر كـامن فهـل سـألوا الغـواص عـن صـدفاتي
فيـا ويحكـم أبلـى وتبلـى محاسـني ومـنكم وإن عـز الـدواء أسـاتي
فـــلا تكلـــوني للزمـــان فـــإنني أخـاف علـيكم أن تحـين وفـاتي
أرى لرجـال الغـرب عـزاً ومنعـة وكـــم عـــز أقـــوام بعـــز لغـــات
أتـوا أهلهـم بـالمعجزات تفننـاً فيـــا ليـــتكم تـــأتون بالكلمـــات

ومن خمرياته:

أوشـك الـديك أن يصـيح ونفسـي بـين هـم وبـين ظـن وحـدس
يـا غـلام! المـدام والكـاس والطـاس وهيـــئ لنـــا مكانـــاً كـــأمس
أطلق الشمس من غياهب هذا الدن وامـلأ مـن ذلـك النـور كأسـي
وأذن الصـــبح أن يلـــوح لعينـــي من سناها، فذاك وقت التحسي
وادع نـــدمان خلـــوتي وائتناســـي وتعجـل وأسـبل سـتور الـدمقس
واســـقنا يـــا غـــلام حتـــى ترانـــا لا نطيـــق الكـــلام إلا بهمـــس
خمـــرة قيـــل إنهـــم عصـــروها من خدود الملاح في يوم عرس

وقال من قصيدة (غادة اليابان) :

لا تلـــم كفـــي إذا الســـيف نبـــا صـــح منـــي العـــزم والـــدهر أبـــى
رب ســـاع مبصـــر فـــي ســـعيه أخطـــأ التوفيـــق فيمـــا طلبـــا
مرحبـــاً بالخطـــب يبلـــوني إذا كانـــت العليـــاء فيـــه الســـببا
عقنـــي الـــدهر ولـــولا أننـــي أوثـــر الحســـنى عققـــت الأدبـــا

إيه يا دنيا اعبسي أو فابسمي لا أرى برقك إلا خلب
أنا لولا أن لي من أمتي خاذلا ما بت أشكو النوبا
أمة قد فت في ساعدها بعضها الأهل وحب الغربا
تعشق الألقاب في غير العلا وتفدي بالنفوس الرتبا
وهي والأحداث تستهدفها تعشق اللهو وتهوى الطربا
لا تبالي لعب القوم بها أم بها صرف الليالي لعبا

جميل صدقي الزهاوي

(1862 – 1936م)

نشأته وحياته

ولد جميل صدقي الزهاوي في يوم الأربعاء الثامن عشر من شهر يونيو سنة 1863م ببغداد لأبوين كرديين كريمين، ثم نشأ في أسرة تميزت بالدين والفقه والأدب. فقد كان أبوه محمد فيضي الزهاوي مفتياً لدار السلام وأخوه فقيهاً من فقهائها. وكان أخوه – كما حدثني جميل – لا يتذوق الأدب، فكان يذوده عن رواية الشعر، ويصده عن دراسة اللغة، ويأبى عناده هو، وتسامح أبيه، إلا أن يديم النظر في الأدب، ويروض القريحة على القريض. كان هم أخيه وأمل أبيه أن يستقيم على عمود أسرته فيكون صاحب قضاء وفقه، ولكنه استقام على محتوم طريقته فكان صاحب شعر وفلسفة. وكان العراق أيام الزهاوي تركي السلطان سني الحكومة، فالتعليم الديني فيه كان تابعاً في لغته وطريقته وغايته لسياسة الأجنبي وهواه؛ فلم يخرج إلا رجال جيش أو رجال إدارة. أما التعليم الديني فظل في صحون الجوامع، عربي اللسان، حر النزعة، طليق الفكر، فتثقف الزهاوي بهذه الثقافة. تنفست على أعصابه الشاعرة أمواج العروبة ترسلها على بغداد البوادي الملهمة. ثم نزعه عرف العم والخال من الكردية فجاهد وجالد وغامر. ثم ابتلى وهو في الخامسة والعشرين من عمره

بداء النخاع الشوكي لازمه بقية حياته. ورمى بعد ذلك بالشلل في رجله فبرم واكتأب وتشاءم. ثم منى في عصره بفساد السلطان. واستطالة الجهل، وانحلال الخلق، فدفعته هذه العوامل كلها إلى مواقف المصلحين من الإنذار والنصيحة.

لم يخلد الزهاوي إلى التبطل كأكثر أهل الشعر، وإنما غامر في خطير الأمور، فعين في بغداد عضواُ في مجلس المعارف، ثم مديراً لمطبعة الحكومة، ثم محرراً بالجريدة الرسمية، ثم انتخب عضواً في محكمة الاستئناف. ودعاه الخليفة حين نبه ذكره إلى الآستانة فحرك فيها لسان النقد وأقض بها مضاجع التجسس، فانتقض أمره وساء مقامه. ولما أعلن الدستور العثماني عين رئيساً لقسم الفلسفة الإسلامية في (المكتب الملكي) ثم مدرساً للآداب العربية في (دار الفنون)، ثم عاد إلى بغداد فعين أستاذاً للشريعة في مدرسة الحقوق. ثم انتخب نائباً عن العراق في (مجلس المبعوثان)، وهو في خلال ذلك كله لا يفتر ليلة عن الشعر والقراءة، ولا يكل نهاره عن الحديث والكتابة. حتى غلب الترك في الحرب العالمية الأولى وقام عرش فيصل في العراق فكان الشأن لأصحاب الجيش وأقطاب السياسة أما الزهاوي وأمثاله من رجال الفكر والشعر فاتخذوا طريقهم على الهامش، اللهم إلا زمناً يسيراً عينه فيه الملك فيصل الأول عضواً بمجلس الأعيان العراقي، ثم تخلى عنه لجرأة شعره وصراحة رأيه، فكان لا ينفك شاكياً ذلك الحرمان متحاملا على نفسه مع انسراق القوى واستحكام العلل، حتى توفاه الله ببغداد في أواخر فبراير من عام 1936.

الزهاوي العالم

كان الزهاوي في صدر شبابه ينظر في العلوم الطبيعية والفلسفية، ووسيلته إلى ذلك ما ترجم من المقالات في الكتب والمجلات، لأنه لم يعرف من اللغات إلا العربية والفارسية والتركية والكردية، وكلها لا تصل فكر الإنسان بالثقافة الحديثة. ومع ذلك استبطن دخائل هذه العلوم بعقله النافذ حتى ألف كتاب (الكائنات) في الفلسفة، وكتاب (الجاذبية وتعليلها) في الطبيعة ذهب فيهما مذهباً خاصاً خالف به أقطاب العلم وجهابذة النظر كقوله: إن علة

الجاذبية ليست جذب المادة للمادة، وإنما هي دفعها إياها بسبب ما تشعه من الالكترونات وسواء أنهض دليله أم دحض فإنه يدل على النظر الثاقب والفكر المستقل.

الزهاوي الشاعر

الزهاوي شاعر من شعراء الفكرة، له البصيرة الناقدة، والفطنة النافذة، وليس له الأذن التي تموسق، ولا القريحة التي تصنع. فاللفظ قد لا يختار، والوزن قد لا يتسق، والأسلوب قد لا ينسجم، ولكن الفكرة الحية الجريئة تعج بين الأبيات المتخاذلة عجيج الأمواج المزبدة بين الشواطئ المنهارة: وكان الزهاوي كشوقي حريصاً على متابعة العصر ومسايرة التطور. ومنشأ هذا الحرص فيهما طبع مرن يطلب التجدد، وحس مرهف يأنف التخلف. ويزيد الزهاوي أن الفخر يزهاه والتيه يذهب به فيحب الثناء ويبغض النقد، فهم لفرقة من صفة القدم يسبق الشباب إلى التجديد، ولنفوره من معرة الجمود يذهب بالرأي إلى التطرف، ولطمعه في نباهة الذكر يجاري ميول الخاصة ويعارض هوى العامة. ومن ثم كان أكثر شعره تشنيعاً على الاستبداد بمهاجمة أهل الحكم، وزراية على الجمود بمحاربة أهل الدين، وتحقيراً للتأخر بمصادمة مألوف الأمة.

نموذج من شعره

قال من قصيدة بعنوان الجهل والعلم:

يريد أناس فرقة الشعب جهدهم ... فلا عطست باليمن تلك المعاطس

ونحن الآلي ما فرق الدين بيننا ... وإن كثرت بعض الأوان الدسائس

فعشنا وعاشت من عصور كثيرة ... جوامعنا في جنبهن الكنائس

ولا يعدم الإنسان طول حياته ... صديقاً يواسي أو عدواً يعاكس

ولكننا عشنا جميعين أعصراً ... كلانا أخو صدق كلانا مؤانس

وإنا سنحيا والعمائم عندنا ... لها حرمة محمودة والقلانس

سنحيا نعم في وحدة عربية لها العلم نظام لها العدل سائس
وتغرس في قلب الشبيبة جرأة على الصدق حباً أن تطيب الغرائس
نساعدنا فيما نحاول دولة معظمة ترعى علاها أشاوش
قول لشعري أيها الشعر صل وجل فأنت بميدان الفصاحة فارس
أغاظك أن الجهل في الناس جاهر يقول وأن العلم في الأذن هامس
يمارس شعري اليوم إصلاح أمة فلله شعري اليوم ماذا يمارس
ستحميك يا شعري فأنذر حكومة تحل ربوع العلم وهي المدارس
حكومة عدل مهد الأرض حكمها فلا البر موتور ولا البحر خانس
وليس لها في المغربين معارض وليس لها في المشرقين مشاكس

ومن خاطراته:

إن الصراحة تغني ما ليس تغني الرموز
أخو الحجا قبل أن يحمل الأداة يروز
وعند من هو غر يجوز ما لا يجوز
كم جامع لكنوز يفنى وتبقى الكنوز
وقد تموت فتاة ولا تموت عجوز
لا تجبنن فليس الـ جبان شيئاً يجوز
إنا نعيش بعصر فيه الجسور يفوز

* * * * *

لقد مشيت بليل داج بغير دليل
فما بعدت كثيراً حتى ضللت سبيلي
من لي بماء براد به أبل غليلي

طلبـــــت شـــــيئاً قلـــــيلا فلـــــم أفـــــز بالقليـــــل
وكـــــم صـــــحبت خلـــــيلا فكـــــان غيـــــر خليـــــل
كـــــل الأحبـــــة أعـــــدائي عنـــــد خطـــــب جليـــــل
لا خيـــر لـــي مـــن بـــلادي وأســـــــرتي وقبيلـــــــي